مدينة مكناس المغربية عبر التاريخ الوسيط

مئذنة مسجد لآل عودة (أحد المساجد الأثرية بالمد

د. محمد كمال شبانة

تعتبر مدينة مكناس حاليا خامس مدن المغرب كثافة سكانية(١)، إذ تتقدمها الدار البيضاء العاصمة التجارية(٢) والرباط العاصمة الادارية(٣)، ومراكش عاصمة الجنوب(٤)، وفاس العاصمة العلمية(٥)، وترتفع المدينة عن سطح البحر بمقدار ٥٢٢ مترا، وتقع على هضبة غير مرتفعة كثيرا، وسط أرض زراعية غنية من سهول السايس، مما يجعلها قريبة الشبه في هذا من مدينة فاس. وتتربع العاصمة الاسماعيلية(٦) في ملتقى طرق شمالية جنوبية (طنجة ــ ميدلت ــ تافيلالت) وطرق شرقية غربية (الدار البيضاء ــ فاس ــ وجده) كما تقع على مسافة قريبة من كل من الساحل المحيطي، ومن سلاسل الأطلس الجبلية الوسطى، تلك السلاسل الممتدة من جبال زرهون العالية وتبلغ المسافة بين مكناس والرباط ١٤٠ كيلومترا، وبينها وبين فاس ٦٠ كيلومترا.

أنشئت مكناس القديمة على سطح هضبة قرب حافة مشرفة على وادي بوفكران، هذا الوادي الذي يشق المدينة إلى جزأين مختلفين تماما، فبينما المدينة القديمة الواقعة إلى الغرب ذات الأسوار الضخمة المتينة المتداخلة بعضها في البعض الآخر، والبالغة طولا حوالي ٤٠ كيلومترا إذا بالمدينة الجديدة تقع شرقا يميزها المعمار الحديث وتتخلل تلك الأسوار القديمة بوابات هائلة الحجم رائعة المنظر لكن التناسق في عمارتها مفقود، وعلى سبيل المثال «بوابة المنصور(٧) المشرفة على فناء (الهديم) فأول ما يسترعي انتباه المشاهد أن أعمدة البوابة المرمرية قصيرة، بحيث لا تنسجم مع ضخامة البوابة»(٨).

إن مكناس الأصل قد بدأت بثلاث قرى، تحمل كل منها اسما مختلفا:

أ ــ مكناسة تازة، ب ــ مكناسة الزيتون، جـ ــ تاجرارت فيما بعد.

فعن الأولى يعلل صاحب الروض الهتون بقوله: «وذلك أن من قبائل زناتة قبيلاً يقال له «مكناسة»، منهم فخذ بتازة شرقاً من مدينة فاس، بينهما سبعة برد، ومنهم فخذان بهذا الموضع غرباً من مدينة فاس، وبينهما نحو ثلاثة برد ونصف بريد(٩).

• «آثار في وليلي» •

وأما مكناسة الزيتون «فهي ذات الوادي المسمى قديماً بوادي الفلفل، وعرف من بعد بأبي عمائر(١٠) ويعرف حديثاً بأبو فكران، وهو الوادي الذي يمد المدينة وما حولها من الفحص بالمياه الثرة.

وأما «تاجرارت» فتعني قبائل تاورا التي كانت تقطن ضفتي وادي الفلفل الغربية والشرقية. بيد أن اسم «مكناسة» هو الأصل التاريخي للبلدة على أي حال، ثم اختصرت إلى «مكناس»، وتعنى التسمية الأصلية مجموعة القبائل الرحل التي قدمت بجمالها وماشيتها من الشرق في القرن الخامس الميلادي والتي وقع نظرها على وادي أبوفكران أثناء مسيرها بتلك المناطق فتوقفت حيث ألقت عصا التسيار، ومن ثم شيدت قراها على شطآن هذا الوادي ذي الينابيع المتدفقة، وسرعان ما تمكن رجال القبائل من مكناسة من تحويل هذه المنطقة الخصبة إلى مزارع شاسعة الأرجاء، مترامية الأطراف، وفي ذات الوقت بالتالي تحولوا من رعاة رحل إلى فلاحين مستقرين، قوام معيشتهم الزراعة. وفي مقدمتها الزيتون والفواكه(١١) إلى جانب مزروعات أخرى.

ولقد كانت مكناس قبل الفتح الإسلامي مقراً لـمجموعات من الكفار والمجوس والنصارى، الذين اتخذوا من مدينة وليلى عاصمة وكان تخطيطها عبارة عن أحياء متفرقة، كل حي قد تجاور وتدانت منازله وتنسب تلك الأحياء إلى قاطنيها من القبائل يومئذ، وهي تاورا وبدو عطوش، وبنو برنوس، وبنو شلوش، وبنو موسى، وكل هذه الفئات المتساكنة كانت تتخذ من الضفة الغربية للوادي (أبو فكران) مقاماً لها، إلا تاورا فقد توزعت على ضفتي الوادي الغربية والشرقية قرب باب اليرادعيين(١٢) وهناك حي بني زياد الواقع غرب الأحياء المذكورة، فلم يكن على الوادي كمثلها، وإنما لها منه جدول ذو مسافة طويلة صعبة المجرى، وبالإضافة إلى عيون أخرى يسقون منها أملاكهم، ولبني زياد هؤلاء قرية مجاورة كانت تسمى «الأندلس» نسبة إلى من سكنها قديماً من الأندلسيين، الذين تكاثروا وتناسلوا على مر السنين فلم تتغير سحنهم أو ألسنتهم، اللهم إلا من امتزج منهم من أهل البلد، وهؤلاء قلة فقد كانوا أقرب إلى المكناسيين نطقاً وشكلاً، كما كانت لبني زياد كرمات في أرض رمل حمراء قريبة من سكناهم وكان عنها مثلاً في وفرة المحصول، وجودة النوع.

ومن الأحياء التي كانت قائمة كذلك حينئذ حيان لقبيلة وزريعة (بنو مروان وبنو عجفوم)(١٣) ذات الأصل الرومي، وكانوا يقطنون إلى الشرق من وادي أبو فكران، وواديهم يعرف بوادي ويسلن من أودية مكناس(١٤) وكانت إقامتهم تمتاز بالهدوء والأمن، بحيث يسكن أهلها الخيام في جناتهم لا يخشون طارقاً ولا يتوقعونه، اللهم إلا ما كان من كواسر الوحوش كالأسود ونحوها.

هذا وقد كان حي تاورا أقرب الأحياء إلى المدينة، وذلك حتى القرن الثامن الهجري، وكانت

• مكناس •

غراسات هذا الحي متصلة بالديار، كما كانت الأرجاء كثيرة لدى السكان ومعظمها يحتوي على أربعة أحجار. كما كان بهذا الحي حمامان، أحدهما منسوب إلى الزغابشة، والآخر يعرف بحمام أبي الخيار وهي نفس النسبة إلى العين التي يرد منها ماؤه وهي التي كانت مصدراً كذلك لسقي مزروعات تاورا وغيرها من أملاك الآخرين.

ويروي المؤرخون أن منطقة تاورا كانت تنقسم إلى أحياء صغيرة منها حي بني عيسى على الضفة الغربية من وادي أبو فكران، ويقال إنهم من بني زغبوش، وإن كانوا أنفسهم يرجعون نسبهم إلى ولي يسمى «الشيخ عيسى» فيقال فلان بن فلان العيسوي وربما كانوا هم قبيلة عيساوة الذين ينتسبون إلى الولي المذكور نفسه، والذي مازال ضريحه قائماً في مكناس قريباً من حيهم، ومازالت أنسالهم حتى الآن تنفذ إليه في مواسم خاصة، ولا سيما مولد النبي ﷺ وهناك حي آخر من تاورا يقطنه بنو يونس، ويسمى هذا الحي «تاورا الفوقية» وبهذا القسم كان يوجد المسجد الجامع وتفصل بين هذين القسمين هضبة عالية يقال لها «الجهدية» وربما كان لارتفاع درجة حرارتها صيفاً عن المعدل دخل في التسمية، وذلك بالنسبة لجو المدينة عموماً والمعروف بالاعتدال كما كان هناك حي ثالث يقال له «فاس الصغيرة» لاختراق الماء له كمدينة فاس، وبالضفة الشرقية من أبو فكران حي رابع يقال له «الجنان الصغير» بالإضافة إلى قسم آخر يدعى «بنو أبي نواس» وأخيراً حي «بني زغبوش» أو حارة الزغابشة حيث كانت تقطن قبائل بني محمد بن حماد وغيرهم.

وبالجملة فقد كانت مجموعة الأحياء التي ذكرناها كافة من الخصب بمكان، وذلك لكثرة المياه والأشجار وقد كان أهلها مطمئنين في عيش رغد، ونعمة تامة منذ أمراء المسلمين «بنو تاشفين» فانقطعت مطامع رؤوس النفاق من بربر المغرب ولم تكن لهذه الأحياء يومئذ أسوار تقيها غائلة المعتدين، فهي في كنف الوالي الذي كان يسكن عادة في قصر يعرف بقصر ترزكير، أقيم على ربوة شرقاً من بني زياد، وغرباً من وادي أبو فكران إلى الداخل من المدينة، ولم يبق من هذا القصر إلا أطلال أدركتها عصور الإسلام الأولى في المغرب.

مكناس أبان عصر المرابطين:

استمد المرابطون ـ تبعاً لسياستهم العسكرية ـ سنة إحداث القلاع والحصون، التي تناثرت في شتى بقاع المغرب الأقصى والأوسط، وبأطراف الصحراء والأندلس، وكان صاحب هذه الفكرة الحربية أبرز زعمائهم وقوادهم يوسف بن تاشفين، فهو الذي أشار بإنشاء بنايات خاصة لتكون بمثابة مراكز للجيوش ومستودعات للأطعمة والأسلحة وسائر المؤن والذخائر والأثقال (١٥) ولعل أوضح دليل على ذلك ما روعي في تأسيس مدينة مراكش عاصمة هذه الدولة.

فقد تحدث ابن خلدون عن تلك المدينة بقوله «وجعل يوسف مدينة مراكش لعسكره وللتمرس بقبائل المصامدة (١٦).

وتطبيقاً لهذه المبادىء العسكرية أقيمت مكناس المرابطية والتي أطلق عليها أول الأمر اسم «تاجرارت بالجيم القاهرية، لتقوم بوظيفة المحلة يومئذ (١٧) وهكذا فإن مكناسة لم تكن بادىء ذي بدء سوى قلعة عسكرية صرفة.

• البوابة الرئيسية لمدينة مكناس •

ونحن إذا اتجهنا ـ في هذا الصدد إلى جامع الخطبة والمعروف بمكناس المرابطية بجامع النجارين (١٨) ، اتضح لنا أن الحي الذي أنشيء به كان أسبق الأحياء بالعمران يضاف إلى هذا أن المساحة المحدودة لنفس المسجد تدل هي الأخرى ـ على أن مجموع السكان حينئذ كان قليلاً.

وهناك ثلاث خطط كانت عبارة عن أحياء محدودة قرب الجامع ومتصلة بمنطقته، وهي «حومة جناوة» بالجيم المعقودة وهو نفس «حي الصباغين» الذي كان مسجده يعرف بجامع أجناوة وهذه التسمية ترجع إلى طائفة من السودانيين كانت عبارة عن فرقة في جيش المرابطين، وكانت تسكن في الصباغين، وهؤلاء يتميزون باسم «جناوة»، وقد أورد ذكرهم ابن القطان عندما أشار إلى أحد المواقع الحربية التي خاضها المرابطون، فقال: «ومات فيها من جناوة ثلاثة آلاف أسود(١٩)».

أما الحي الثاني فيعرف بدرب الفتيان، ولفظ «الفتيان» هذا كان يطلق على الأسبان المنخرطين في الجيش المرابطي (٢٠) فالثابت أن طائفة من هؤلاء اتخذت من مدينة مكناس موطناً لها وهم المعروفون في التاريخ بـ«المعاهدون» أولئك الذين حكم عليهم علي بن يوسف بالنفي من الأندلس إلى المغرب، فاستقرت فئة منهم بهذه المدينة(٢١) حيث تميزوا بسكنى درب الفتيان.

وأما الحي الثالث فيعرف بـ«زنقة تيبربارين» وربما رسمت بعض المؤرخات القديمة الكلمة «أبربارين» وهو تعبير عن جمع المذكر في اللهجة البربرية، وقد يشير إلى حامية ثالثة كانت تستوطن هذه الناحية ويغلب على الظن حيال هذه الأحياء الثلاثة أنها كانت مقراً للعسكريين في المدينة المرابطية وذلك حسبما يتضح من سكان الخطط الثلاث التي تمتد من حي الصباغين إلى درب الفتيان إلى تيبربارين.

وهناك قرب حي النجارين «درب القرع» يتجاوره عن يمين الداخل أطلال قلعة قديمة فيما يبدو وربما كانت مقر الحاكم المرابطي أو جزءاً منه، حيث تمركز الأسبان في تلك المنطقة وحيث ينسب إليهم تحريف كلمة «القلعة» إلى «القرعة» أو «القرع» وهذا شائع عندهم بين الراء واللام.

وكانت الأسواق العسكرية تنتشر قريباً من هذه الأحياء الخاصة، كسوق السلام وملحقاته غرب القلعة وهو الذي عرف من بعد بسوق السرايرية أما بقية الأسواق فكانت تقع في الغرب الشمالي للقلعة وهي النجارين، فالحدادين، فالسفالين (والقزادرية)، فالسمارين والثلاثة الأخيرة بأعلى سوق النجارين ولعل من مميزات العمارة المرابطية في مثل هذه الأسواق ما يشاهد في سوق السرايرية باقياً إلى وقت قريب وهو «البئر» في نهاية السوق بالإضافة إلى السقاية القديمة التي اتخذت شكل صهريج

مستطيل وعريض، ومازالت أقواس الصهريج الثلاثة قائمة حتى اليوم مع الأقواس الخمسة الأمامية بيد أن البئر قد حولتها بلدة مكناس حديثاً إلى دورات مياه عامة ويستنتج من هذا أن الصهريج كان في بداية الأمر «خطارة» تحتوي ماء الأمطار في السقي والشرب وذلك قبل أن يغطى بسقف الجامع من بعد» ومما يقرب هذا الاستنتاج أن قلعة مكناس في عهدها المرابطي ـ كانت لا تزال غير مجهزة بالدور المائية، وإنما بالآبار وربما بماء المطر أو العيون، وكذلك ربما كان للتشابه الملحوظ بين سوق السرايرية وأسواق مراكش أثر واضح في تأييد نظرية إرجاع نوعية هذه الأسواق إلى مكناس المرابطية وذلك بالنسبة لاتساع مساحة الأسواق في كل منها وهندسة الحوانيت ومنظر السقاية بصفة خاصة.

ولقد كان من الطبيعي أن يتمركز السكان المدنيون إلى جوار القطاع العسكري المرابطي يومئذ بالمدينة، وهذا ما عناه الإدريسي حين تحدث عن مكناس في عهد المرابطين إذ قال: «ولم يكن في أيام الملثم ـ بعد تاكرارت ـ أعمر قطرا من بني زياد(٢٢) وحي بني زياد واحد من عدة أحياء عمرت بها المنطقة في هذا العهد، وكلها كادت تجاور المناطق العسكرية متصلة بها في أكثر من ناحية، وعليه فإن الأحياء المعروفة اليوم بـ«التوتة» «والكدية»، «وبراكة» «وظهر المسجد» تعتبر من المناطق القديمة السكنية هذا بالإضافة إلى الأسواق العامة القديمة، وكذا المساجد الصغرى المنتشرة في هذه الأحياء عموماً، ومنها على سبيل المثال مسجد براكة(٢٣) ومسجد الحشاشين(٢٤) المعروف بمسجد رحبة الزرع القديمة.

ويذهب الأستاذ المنوني المكناسي في التدليل على أقدمية تلك الأحياء التي ترجع إلى عهد المرابطين ـ بثلاثة ملامح تاريخية(٢٥).

أولاً: تسمية حمام الكدية بـ«الحمام البالي» بمعنى القديم، وهو الذي صار يعرف بـ«حمام مولاي عبدالله بن أحمد».

ثانياً: تغير هندسة الأسواق بعد سوق النجارين حيث تضيق أزقتها بدلاً من الاتساع الواقع في سوق النجارين وما تحته إلى سوق السرايرية، مما يدل على أن توسيع المدينة سار على غير تخطيط مدروس، شأن أكثر المدن المؤسسة في العصور الوسيطة.

ثالثاً: وفرة المساجد الصغرى في هذا القطاع، وهو تقليد مرابطي وضع أساسه يوسف بن تاشفين ويقول ابن أبي زرع عن أعماله لما دخل مدينة فاس:

وأمر بينيان المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها، وأي زقاق لم يجد فيه مسجداً عاقب أهله،

• بوابة في مكناس •

• منظر عام في مكناس •

وأجبرهم على بناء مسجد فيه، وكان هذا صدر عن يوسف بن تاشفين بالنسبة لفاس، فإن سياسة الذين خلفوه من بعده ستعمل لتحقيق ذلك بالنسبة لمكناس بعد ما تسارع الناس إلى عمارتها.

ونستنتج من هذا النص من زاوية أخرى مدى الاهتمام الذي كان يوليه حكام المرابطين للناحية الدينية في شرق مملكتهم وغربها ولا غرو فتلك طبيعة المبادىء التي قامت عليها ـ سياستهم بادىء ذي بدء، وعليه فإن المساجد في مدينة تاجرارت كما في غيرها قد نالت تقديرهم بإقامة الصلوات والعناية بذكر الله، ونشر كتابه الكريم، والعمل على تفقيه السكان في أمور دينهم ودنياهم وهكذا كان الطابع العلمي للمدينة كما كان في غيرها.

وبالنسبة للأسوار فنستطيع أن نقرر أن تاجرارت لم تكن مسورة في بادىء الأمر ثم سورت من بعد إنشائها بفترة، اعتماداً على السياسة المرابطية يومئذ، والتي كانت تقضي بالبناء للمدن العسكرية أولاً دون تسوير، ثم لما حزم الأمر بظهور دعوة الموحدين اضطر المرابطون إلى إقامة الأسوار في المدن ولا سيما بالعاصمة مراكش، فقد ذكر ابن أبي زرع أن بناء أسوارها لم يحدث إلا بعد مضي حوالي سبعين عاماً من تاريخ إنشائها وهو عام ٤٥٤هـ، ويعقب صاحب القرطاس على ذلك بقوله «ولم تزل كذلك الأسوار لها، فلما ولي بعده ولده علي بني سورها. وذلك في سنة ست وعشرين وخمسمائة»(٢٦).

أما فيما يتصل بأسوار مكناسة فنتصور أنها أقيمت على مراحل على أيدي المرابطين، حتى إذا ما صارت إلى ما صارت إليه من الضخامة والطول رأينا الأبراج السامقة تتخللها. فمنها على سبيل المثال ـ

ما أشار إليه المؤرخون ـ برج ليلة(٢٧) الذي عرف بعد ببرج الأنفاط(٢٨)، والواقع غرب المدينة، وكان محله قبل أن يدرس على نفس أرض المسجد المعلق فوق ساباط سويقة زعبول(٢٩) وبالإضافة إلى هذا البرج كشف علماء الآثار بالمدينة عن عدة تحصينات أخرى المدينة، لعل أهمها ذلك التحصين الذي كان يقوم عند باب قورجه، وهو أحد أبواب المدينة غرب مسجد شافية من حي روي مزيل(٣٠)، مستدلين من كلمة «قورجة» على ذات التحصين إذ أنها كلمة أسبانية تعني طريقا بين سورين، وتتصل ببحر أو نهر، بغية أن يتمكن المحصورون من داخل الأسوار من بلوغ مكان الماء لا سيما إذ اشتد الحصار ونفذ احتياطيهم منه(٣١).

هذا، ولم تبق من تلك الأسوار المرابطية في مجموعها سوى أنقاض أو قطع متفرقة جهة الجنوب أو الشمال، في الجنوب مثلاً نجد الجدار العريض المستطيل الممتد خلف شارع السكاكين، ماراً بشارع الحمامصية. ثم يواصل امتداده حتى جنوب سوق السرايرية حتى يبلغ باب الحديد، وحيث يبدأ السور الإسماعيلي الذي يتخذ مساراً منعرجاً إلى غرب المدينة، فقد ثبت أن السور المرابطي قد أصابه تعديل من ناحيتين في عهد المولى إسماعيل «فالسور الشرقي في بدء موضعه من القصبة الإسماعيلية والسور الغربي أضيف موقعه إلى الزيادة الإسماعيلية الواقعة في غرب المدينة عند جناح الأمان وما إليه»(٣٢).

أما ما تبقى من السور الشمالي فيقع قرب حمام البرادعيين، ماراً خلف مشهد سيدي مغيث مدرب سبع لويات، إلى فران النوالة، ومن هذا المكان ينعرج السور خلف دروب قاع وردة، ثم يختفي قليلاً ليظهر أثره قرب باب مسجد حماموش، وعندئذ يندثر سور المرابطين نهائياً.

وفيما يتصل بأبواب المدينة الأثرية يتحدث صاحب «الروض الهتون» عنها فيقول: «وللمدينة ستة أبواب: باب البرادعين، وباب المشاوريين، وباب عيسى، وباب القلعة، وكان يسمى بهذا الاسم قبل أن تبنى هنالك القصبة على ما يظهر من كلام بعضهم، والله تعالى أعلم، وباب أفورج، وباب دردورة، وربما قيل له باب الصفا(٣٣).

ويروى ابن زيدان في «إتحاف أعلام الناس» تعليقاً لبعض المؤرخين حيال هذه الأبواب الستة وما أصابها عقب التعديلات التي حدثت فيها على العهد الاسماعيلي، فيذكر بشأنها قوله:

«كل باب من هذه الأبواب تغير عن حاله، أما باب البرادعيين «فقد أدركناه على خمسة أقواس تحيط به أبراج كثيرة، فهدم في سنة سبع وتسعين أو ثمانية، وزحلق لناحية الجوف، وبنى على ثمانية عشر قوساً محدقة بصحن فسيح...

وأما «باب المشاوريين» فقد هدم ـ أيضاً ـ لقريب من هذا العهد، وبنى وراءه غرباً باب يسمى «باب بريمة» بتشديد الراء المكسورة.

وأما «باب عيسى» فقد هدم قبل هذا التاريخ، وزيد في القصبة، وموضعه الآن بين باب سعيد ـ بكسر ياء مشددة ـ وضريح سيدي عبد الرحمن المجذوب.

وأما «باب القلعة» فقد هدم وزيد في القصبة، وموضعه ـ الآن ـ قريب من باب العنوج.

وأما «باب قورجة» فقد هدم وزيد في القصبة. وبنى ـ جنوباً منه ـ باب يسمى باب عبد الرزاق.

وأما «باب دردورة» فقد هدم ولم يبق، وموضعه ـ الآن ـ يعرف بباب تزيمي... (٣٤).

مكناس أبان عهد الموحدين:

يذكر المؤرخون في صدد أول غارة شنها الموحدون على مكناس، أن والي المدينة يومئذ بدر بن ولكوط «قد جمع أغنياء الناس ووجهاءهم داخل المدينة، كما جلب ونقل إليها العديد من الأقوات، أما عامة الناس فقد بقوا في مواضعهم فكان من عادة سكان المدينة أن يجتمعوا في سوق يقال له «سوق الغبار» بإزاء قصر ترزكين، وحيث يفد إليه أهل الحصن والأحياء المجاورة يوم الأحد من كل أسبوع، فبينما هم يوم أحد قد اجتمعوا وكملوا بالسوق المذكورة وهي بأرض مرتفعة ـ إذ أشرفوا على خيل مقبلة إليهم في زي المرابطين اللثم والغفائر القرمزية والمهاميز التاشفينية، والسيوف المحلاة، والعمائم ذات الذؤابات، فلما رأى القوم هذا الزي قالوا تقوية السلطان جاءتنا. وسارعوا للقائهم فرحين بهم، وهبطوا عن آخرهم، فلما خرجوا على منع القصر والسوق حسر الفرسان اللثم، ونادوا: يا المهدي وكان ذلك شعارهم، وأجالوا السيوف عليهم، ولم ينج واحد منهم فيما ذكر، وكانوا آلافاً رحمهم الله ومازال الناس ـ لهذا لعهد ـ يتحدثون أن المقابر التي عند باب مسجد السوق القديم هي مقابر شهداء (٣٥) فمن ذلك الحين والموحدون لا تنفك هجماتهم على مكناس، فيقتلون الرجال، ويسبون النساء والأطفال، ويستبيحون الأموال «حتى ضاق الناس ذرعاً بكثرة الوقائع عليهم» فقد كان هؤلاء الموحدون يقاتلون يومئذ بدافع من عقيدة غاية في الإفراط عصبية، فالناس في نظرهم ـ مجسمين، ومن ثم فيجب قتالهم بينما الناس يسمونهم «الخوارج».

وتبعاً لرواية ابن خلدون ـ بهذه المناسبة ـ في كتابة «العبر» ونقلها ابن غازي المكناسي أن عبد المؤمن لما تم له الاستيلاء على فاس ـ أرسل بعض قواده ليحاصروا مكناسة، وانصرف هو إلى حضرته

مراكش، فشدد هؤلاء الحصار سنين وأشهراً حتى قيل إن ذلك استمر أربعاً أو سبعاً في بعض الروايات ، وهكذا اضطر المرابطون إلى حفر الخنادق حول المدينة مبالغة في الدفاع عنها ولصد الموحدين بيد أن أصحاب الدعوة الجديدة قد ذاع صيتهم، والقبائل ترد إليهم أفواجاً، والفتوح تترى عليهم وسكان الجبال يهبطون في اتجاههم مبايعين، وبذلك استهان الموحدون بحصن مكناسة، وأرسل عبد المؤمن الموحدي أحد رفاقه المخلصين ليقوم بنفسه على وسائل حصار هذه المدينة، وبينا هو كذلك على أبواب الأسوار، إذ فتح أحدها ونفذ منه عشرة من الفرسان مكناسة فجأة، وأعملوا سيوفهم في جيش الموحدين يمنة ويسرة، حتى أشاعوا فيه الفوضى، ونالوا منه نيلاً عظيماً ... ولكن الهزيمة لم تتحقق لأحد من الطرفين، سوى أن الحصار طال أمده، حتى فنيت الأقوات، وهلك كثير من الناس جوعاً، مما اضطر جيش المرابطين في مكناسة إلى التسليم طوعاً وعنوة، وهرب في نفس الوقت ـ عامل المدينة بدر بن ولكوط هو وخمسون من الفرسان، وترك مدينته نهباً للهلاك» ودخل الموحدون المدينة فسفكوا الدماء وسبوا النساء والذرية، واستباحوا الأموال، وتمادوا على ذلك يوماً كاملاً، ونادى مناديهم في آخر النهار برفع السيف، وعظم البلاء في ذلك اليوم على الناس، وكان ذلك في أول عام خمسة وأربعين وخمسمائة(٣٦).

وهكذا أصيب الاقتصاد بالمدينة في الصميم، وزاد الأمر سوءاً جلاء بعض السكان عن البلد بحيث زهدوا في المقام بها تحت وطأة آثار القتال، أما من بقي من الناس فقد اضطر تحت ظروف الاقتصاد السيء ـ إلى أن يشتغل البعض منهم في أملاك أعيان الموحدين تلك الأموال التي استولى عليها هؤلاء أثر الغزو، ولا سيما في الأراضي التي أصبحت ملكاً حقيقياً لغزاة الموحدين بحيث كان يتحتم على فلاحي تلك الأراضي أن يقدموا للمسئولين نصف الفواكه الصيفية والخريفية، وبالنسبة للزيتون عليهم أن يدفعوا إليهم بثلث غلته(٣٧).

ونتيجة لتلك السياسة المستغلة فقد استطالت أيدي النظام الجديد على حقوق الرعية، فأصاب الناس(٣٨) في المدينة من ذلك عنت وإرهاق واستمر الوضع بالنسبة لاستغلال الأراضي هكذا مدة، حتى ضج الفلاحون، وتركوا الأرض للبوار، الأمر الذي أقلق بال المسئولين من رجالات الموحدين في مكناسة، وتحت ضغط الإضراب الذي شل حركة الاقتصاد خاصة في الزراعة، اضطر رجال السلطة إلى انتهاج مسلك التخفيف في الضرائب عن المحاصيل، فأقبل الفلاحون من جديد على الزراعة، وامتدت بذلك الغراسات في الأحياء، وعم الخير بسائط المدينة وأحوازها ونفقت الأسواق، وأضحت مكناسة بأسواقها قبلة التجار يفدون إليها من كافة الأنحاء.

فإذا ما انتقلنا إلى المرافق العامة لمكناسة الموحدية لاحظنا أن الملامح الحضارية قد شملت أكثر من مرفق ففيما يتصل «بالحمامات» نرى أن المدينة قد اشتملت على أربع حمامات، تبعاً لرواية ابن غازي.

الأول: وقد كان يطلق عليه «الحمام البالي» وهو حمام المولى عبدالله بن حمد في حي الكدية، ويفترض الأستاذ المنوني كونه «مرابطي التأسيس» ولا مانع من قبول هذا الافتراض على أساس أن يكون هذا الحمام قد حظي بتجديدات بارزة المعالم في عهد الموحدين (٣٩).

الثاني: حمام الجديد، وهو الواقع في الحي المنسوب إليه.

الثالث: الحمام الصغير، ولم يحدد ابن غازي موقعه بالضبط في المدينة (٤٠).

الرابع: «حمام الفونش» ويقع قرب مؤخرة حي سيدي أحمد بن خضراء، أسفل درب الوسعة مجاوراً للفرن (٤١).

ومن اسم هذا الحمام الأخير يستنتج أنه من بناء أمير أسباني، أنشأه لخدمة الطائفة الأسبانية التي كانت تقيم بالمدينة يومئذ، ثم صار حماماً عاماً كغيره، ربما بعد إنشائه، كذلك يقول ابن غازي في صدد هذا الحمام: «وله (للأمير الأسباني) في إحداث هذا الحمام مناقب اشتهرت عنه: من إرضائه أصحاب الديار التي اشتراها لذلك في أثمانها وغير ذلك (٤٢) وقد اندثر - الآن - أثر هذا الحمام، وشيدت مكانه بناية حديثة، ويعود بناؤه إلى عام ٧٢٠هـ (٤٣).

ومن الملامح الحضارية بعد الحمامات التي كانت تقام قربها المسجد الأعظم، وبعض المرافق الإدارية والاقتصادية كمحكمة القاضي ومكتب المحتسب، وسماط الشهود الذي كان على هيئة دكاكين من الجانبين تحت المدينة البلالية وعلى امتدادها، ويذكر بعض المؤرخون أن تلك الحوانيت قد بلغت في فترة متأخرة بعض الوقت - إحدى وعشرين حانوتاً (٤٤).

أما محكمة القاضي فكان مقرها متصلاً بباب الجامع الثالث من ناحية المدينة الفيلالية وللصلة الملحوظة بينها وبين المسجد أثر واضح في إنشائها بجواره (٤٥) ومن جهة أخرى فقد بلغت المساجد في هذا العهد أربعمائة مسجد (٤٦).

ومن المظالم الموحدية الشهيرة في مكناسة «دربتبربيعين» وكان يقع قرب الجامع العتيق ولماكانت كلمة «تبربيعين» كلمة زيانية وتعني «الجماعة» فيغلب على الظن أن هذا الدرب كانت تقطنه بعض الحاميات الموحدية، تبعاً لإشارة المراكشي في قوله:

• تخطيط ورسم طبوغرافي لمدينة مكناس وتبدو في الوسط المدينة الملكية •

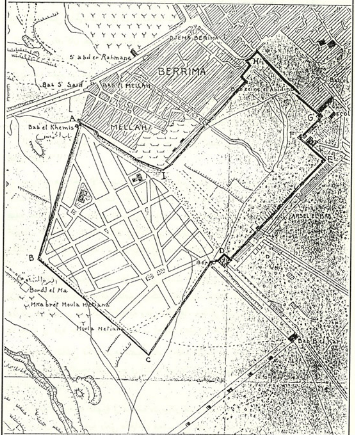
DJEMA BERIMA
S^t abd er Rahmane
BERRIMA
Bab S^t Said
BAB EL MELLAH
Dar zeine el Abidine
Bab el
Ecol
A
Bab el Khemis
باب الخميس
MELLAH
H
G
F
E
I
ARSEL EL BAB
B
البرج الماء
BordJ el Ma
MKabret Moula Metiana
Moula Metiana
D
Ber
C
Bab B^el Kari

«وانضاف هؤلاء القوم لمسجد الجماعة خلق من قبائلهم، فعدوا منهم، ونسبوا إليهم(٤٧) فقد صارت الكلمة العربية «الجماعة» معروفة في العهد الموحدي بأنها تعني وحدة عسكرية تضاعف عددها مع مرور الأيام.

هذا وكانت للمدينة حينئذ ستة أبواب: باب البرادعيين، وباب المشاوريين وباب القلعة وباب أفورج، وباب دردورة، وكان يقال لهذا الأخير «باب الصفا»(٤٨).

أما نواحيها فقد كانت سبعة: زرهون، وبنو كلثوم، وبنو تنسكين، ووهاصة، وبنو دنون، وابن أركان، وبنو أبي السمح.

هكذا كانت مكناسة وأحوازها ذات عمران، متمتعة بالأمان على العهد الموحدي، إلى أن أساء العمال استغلال سلطانهم، وأصاب الناس منهم أو بسببهم جور عظيم في أخريات هذا العصر، واشتد هذا الأمر منذ وقعة العقاب المشهورة (١٥ صفر ـ ٦٠٩هـ) (١٦ يوليو ١٢١٢م) والتي اعتبرت بدورها نذيراً بقرب سقوط الدولة الموحدية، بحيث لم تقم لها قائمة بعدها(٤٩).

مكناسة في عهد بني مرين(٥٠) والوطاسيين:

لقد ظهر أمر المرينيين في المغرب عندما ضعف أمر الموحدين وشنوا الغارات على البلاد وفي هذه الأثناء قام علي ابن أبي العافية بثورة ضد عامل الموحدين بمكناسة، وسهل بذلك لبني مرين دخول المدينة، بيد أن الموحدين جمعوا شتاتهم، وتمكنوا من الاستيلاء على مكناسة من جديد فكان أن اعتصم ابن أبي العافية بجبل زرهون فترة من الوقت، واستمر الحال كذلك حتى استجمع المرينيون قواهم، واستولوا على بسائط مكناسة ثم دخلوا المدينة مرة أخرى ويروى ابن خلدون في هذا الصدد «أن أمير بني مرين أمر أهل مكناسة حينئذ أن يوجهوا بيعتهم إلى الحفصى سلطان تونس، فوجهوها إليه، وكانت من إنشاء قاضيهم أبي المطرف ابن عميرة(٥١)».

وقد بذل المرينيون جهوداً ضخمة في سبيل النهوض بمدينةمكناسة. وهاهوذا السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني (٦٥٦ ـ ٦٨٥هـ) يأمر ببناء قصبة مكناسة عام ٦٧٤هـ، كما أنشأ بها مدرسة الشهود(٥٢) ، ويقال لها «مدرسة القاضي» نسبة إلى القاضي أبي علي الحسن بن عطية الونشريشي، الذي كان يخصص جل أوقاته للتدريس فيها(٥٣) كما قام السلطان أبو الحسن علي بن عثمان المريني (٧٣١ ـ ٧٥٢هـ) ببناء عدة مرافق ـ بدوره ـ في المدينة، كزاوية القورجة(٥٤)، وزاوية

الصناعات التقليدية في مكناس

باب المشاورين(٥٥) وغيرها من السقايات والقناطر في طرقاتها. كما أنشأ المدرسة الجديدة(٥٦) التي عهد في بنائها إلى قاضيه بمكناسة يومئذ أبي محمد بن عبدالله بن أبي الغمر وافتتحها السلطان المذكور بنفسه. ولما ولي بعده ابنه أبو عنان (٧٤٩ ـ ٧٥٩هـ) تابع عنايته بها، وراقب أحوالها بشخصه، فمن ذلك أنه أمر بالاقتصار على عشرة من الشهود بها واسغنى عن الباقين وكان ممن أبقى عليهم من هؤلاء الشيخ أبو الحسن بن عطية الرنشريشي فشق هذا الإجراء على بعض الشهود المعفون لحداثة سن بن عطية، الأمر الذي حدا بهذا القاضي إلى أن ينشىء رجزاً بهذه المناسبة ويرفعه إلى أبي عنان، وفيه يقول:

يا أيها الخليفة المظفر   دونك أمري إنه مفسر
عبدكم نجل عطية الحسن   قد قيل لا يستهان إلا أن أسر
وهو في أمركم المعهود   من جملة العشرة الشهود
نص عليه أمركم تعيننا   وسنة قارب أربعينا
مع الذي ينتسب العبد إليه   من طلب العلم وبحثه عليه(٥٧)

هذا، وقد عمت الخيرات والثروات مكان مكناسة وأحوازها أبان العهد المريني وانتشرت الغراسات والجنات حول المدينة، وكانت المداشر محدقة بها من كل جانب، كل مدشر بمزارعه وغراساته ومراعيه، وكانت أشجار الزيتون بهذا البلد مضرب المثل كما وكيفاً، ومازالت حتى العصر الحديث خفاقة اللواء في هذا الميدان.

لقد استمرت مكناسة في أطراد ونمو، وازدهار معيشة في ذلك العصر، حتى ثار بها الشيخ اللحياني الورتاجني، وانتشر أمره فيا، وحاصرها حصاراً شديداً، ووكل إلى قائده أيوب ابن يعقوب الشجاع أمر إخضاعها لسلطانه، وبهذا ملكها اللحياني نحواً من عشرين سنة في العقد الثالث والرابع من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) بيد أن رد الفعل لهذه الفتنة كان سيئاً بالنسبة لخيراتها خاصة، فقد هلكت معظم المحاصيل ولا سيا غراساتها وأشجار الزيتون بها، ولم تنهض من كبوتها إلا بعد أن قيض الله للبلاد دخول الأمير الوطاسي أبي زكريا(٥٨)، الذي اشتهر بميوله الدينية

وحبه للبر والإحسان، واتصافه بكريم الأخلاق فأخذ على عاتقه رعاية مكناسة وأهلها، وأولادهم عناية فائقة.

كما أحسن إلى المخطئين، فتجاوز عن سيئاتهم، بأن ألغى العقوبات التي سبق توقيعها عليهم، وفي الميدان الاجتماعي قم بتجديد بعض الرسوم الدارسة والأطلال البائدة، عناية منه بتاريخ المدينة، كما أنشأ بجامعها الكبير المجلس المسمى بـ«الأسبوع» حيث يجتمع فيه القراء لتلاوة القرآن الكريم كل أسبوع. وأمر بتحويل «باب الحفاة» إلى قرب «دار الوضوء الكبرى»، حيث رأى ذلك أنسب من «الباب الجوفي» وتم ما أشار به الأمير في حينه وعلى نحو ما أراد.

ويذكر «ابن غازي» أن الأمير الوطاسي ألحق بالجنوب الشرقي من الجامع مجلساً عالياً وقد «أحدثه فوق ساباط الأسبوع» المعروف، وترجع تلك التسمية إلى أن بانيه كان قد أسسه ليصبح مجتمعاً للقراء الذين يرتلون فيه كل يوم سبعاً واحداً من القرآن الكريم، فيختموه مرة كل أسبوع، وذلك على نمط ما هو متبع في بعض نظراء هذا الجامع، كمسجد القرويين والجامع الكبير في فاس الجديدة(٥٩).

مكناس في العصر الإسماعيلي:

اتخذ المولى إسماعيل مدينة مكناس عاصمة لملكه في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي (١٦٧٢ ـ ١٧٢٧م) فإليه تنسب «العاصمة الإسماعيلية» التي جعلها مركزاً لجنوده حيث أقطعهم الأراضي الواسعة حولها، فاستفادوا من خيراتها دون أن يكون لهم حق امتلاكها. وكان هؤلاء الجند يبلغون حوالي ٥٠ ألفاً، جلبهم من أواسط أفريقيا، بحيث يمكن بهذه القوة في ظل هذه الشخصية الفذة أن ينعم المغرب في عهده بالهدوء.

وقد أضاف هذا السلطان العظيم إلى هذه المدينة مكناساً جديدة تليق بطموحه، بأن بني فيها القصور والمساجد، وغرس الحدائق والبساتين، كما أحاطها بسور يبلغ طوله أربعين كيلومتراً، تتخلله البوابات الضخمة الهائلة، كبوابة المنصور، والبرادعيين (بردعين) ونسيبا، والخميس وغيرها.

وإذا ما عرفنا أن فترة حكم المولى إسماعيل قد طالت حتى بلغت ثلاثة وخمسين عاماً فإن فترة الاستقرار الفعلي في الداخل، والأمن للدولة من الأطماع الخارجية لم تتجاوز عشرين عاماً. أما باقي أيامه فقد كانت حروباً في كل الجهات، مع البرتغاليين والأسبان في الغرب ومع الإنجليز في الشمال عند طنجة، ومع الأتراك في الشرق عند حدود الجزائر، ومع القبائل الصنهاجية البربرية المتمردة في

الجنوب. بيد أن تلك الحروب التي خاضها في الداخل ضد المتمردين أو ضد الغزاة الوافدين من الخارج قد قيض له فيها الظفر حتى استتب السلام وأصبحت مكناس جوهرة المغرب حقاً، فمن مظاهر ذلك أن المولى إسماعيل رأى المدينة تبعد عن البحر بحوالي ١٤٠ كيلومتراً فتفتق ذهنه عن وسيلة تعوضها هذا الجو الساحلي فأنشأ فيها حوضاً هائلاً يشبه نظيره «حوض الأجدال» في مراكش، لتجميع مياه العيون والأمطار ومازال هذا الحوض باقياً إلى يومنا هذا تروى مياهه مزروعات «حدائق السلطان» على مر العام (٦٠).

ومن منشئات السلطان إسماعيل إحداثه كذلك مخزناً للغلال، وقد غرس فوق المخزن حديقة غاية في الإتقان والروعة، فهي تضم عدداً من الأشجار كالتين والزيتون وغيرها. كما ابتنى بجوار هذا المخزن اصطبلاً هائلاً يتسع لحوالي اثني عشر ألفا من الخيل، ومازالت أطلاله ماثلة للعيان حتى اليوم كما أنشأ تحت الأرض من هذه المدينة الملكية كهفاً هائلاً يروي بعض المؤرخين أنه حبس فيه خمسة وعشرين ألفاً من الأسرى الأوربيين ونحو عشرين ألفاً من المارقين والخارجين على القانون ولاسيما المجرمين وقطاع الطريق.

وهكذا نرى أن تلك الآثار المجيدة، والحدائق الباقية حتى الآن دليلٌ واضحٌ على مبلغ العظمة والمجد اللذين بلغتهما مكناس في عصر المولى إسماعيل باعث نهضتها. كما تجدر الإشارة إلى أن هذا العمران لم يكن قاصراً على مكناس العاصمة وحدها، بل شمل المملكة عامة، فقد روى أن المغرب يومئذ كان يضم ما يقرب من مائتين وخمسين مدينة، يقطن كلاً منها أكثر من ثلاثين ألف نسمة، تظللها السكينة، ويسودها الهدوء والاستقرار، وتنعم بالعيش الرغيد.

لقد كانت مكناس تدعى بـ«المدينة الملكية»، وحق لها هذا الشرف أن تحظى به من ثلاث مدن مغربية أخرى هي على الترتيب: مراكش، وفاس، والرباط، وذلك بفضل المولى إسماعيل الذي حباها بأن تكون «العاصمة» في عهده طيلة الخمسين عاماً التي حكم خلالها المملكة (١٦٧٣ - ١٧٢٦م).

وبوفاة المولى إسماعيل خرجت مكناس من دائرة الضوء، وراحت تغط في سبات هادي عميق تحت ظلال جبال زرهون العالية، التي هي جزء من جبال أطلس الوسطى (٦١) وظلت هكذا منذ بداية القرن التاسع عشر حتى جاء المولى الحسن الذي أولاها عناية بتجهيزها حفاظاً على ما بها من مآثر خالدة، تجمع بين عظمة الآثار ودقة الإبداع.

• فارس مغربي •

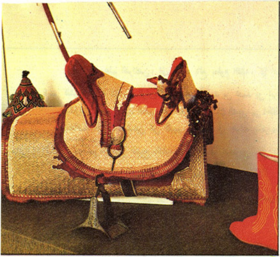

• سرج حصان •

طائفة من مشاهير علمائها:

لقد وسعت مدينة مكناس طوائف من مشاهير العلماء على العصور التي توالت عليها وكان لحكام المغرب على اختلافهم فضل نشر العلم والثقافة بين ربوع المغرب عموماً، وفي المدن التي حظيت بعنايتهم ولاسيما العواصم مثل فاس، مكناس، مراكش.

فقد كان بمكناس من مشاهير العلماء والكتاب والأدباء أعداد كبيرة، نذكر منهم:

١ ـ العالم العلامة الشيخ/ أبو عبدالله محمد بن أبي الفضل بن الصباغ رحمه الله تعالى، وقد تحدث عنه جده أبو عبدالله بن مرزوق في كتابه «المسند الصحيح الحسن في ذكر مناقب أبي الحسن» الذي صنفه في تاريخ السلطان أبي الحسن المريني، كما تحدث عن هذا الفقيه ابن خلدون في كتابه «العبر» كما ترجم له لسان الدين بن الخطيب السلماني في بعض فهارسه، وكان من كبار العلماء الذين اصطحبهم معه هذا السلطان ضمن مجموعة من نظرائه في حركته البحرية إلى إفريقية، ومات رحمه الله غريقاً في هذه الرحلة مع غيره من العلماء(٦٢).

٢ ـ الشيخ/ الفقيه القاضي أبو محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد، له باعه في المعرفة والبلاغة(٦٣).

٣ ـ الفقيه العدل/ أبو علي الحسن بن عثمان بن عطية التيجاني المكناسي، من أعلم أهل زمانه

بالحساب، وعلم الفرائض، إلى اهتمام بالغ بعلوم الفقه، كما أن له شعراً كان يقرضه (٦٤).

٤ ـ الشيخ الفقيه الأديب الراوية/ أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي، كاتب شاعر، مشارك في بعض فنون العلم وهو أحد شيوخ لسان الدين بن الخطيب وقد تحدث عنه في كتابه «نفاضة الجراب» ضمن من لقيهم بمكناس في جولته بالمغرب (٦٥).

ومنهم القاضي الشيخ الفقيه/ أبو عبدالله محمد بن علي بن أبي رمانة (٦٦).

ومنهم قاضي المدينة الشيخ/ أبو المطراف بن عميرة (٦٧).

ومنهم الشيخ/ الصالح أبو العباس أحمد بن عاش، المنسوب إليه المسجد المعروف بهذه المدينة (٦٨).

ومنهم الفقيه/ أبو موسى عمران الجناتي (٦٩).

ومنهم الشيخ/ أبو محمد عبدالله بن حمد (٧٠).

وغير هؤلاء كثيرون ممن طارت لهم شهرة في العلم والأدب، قد احتوتهم مدينة مكناس على مر عصورها الإسلامية، ونشروا علومهم وآدابهم بين ربوع المغرب والأندلس وأفريقية يومئذ، ومازال الكثير من تراثهم تعمر به المكتبات العربية في مختلف الفنون...،» ولو تتبعنا من كان فيها (مكناس) من الأعيان والسادات ما طمعنا بالإحاطة بعشر عشره، وقد كنت أردت أن أجمع من أمكن منهم مرتبين على حروف المعجم، فجمعت منهم جملة صالحة، ثم خمدت القريحة عن ذلك، وجمدت الطبيعة، وعاقت العوائق، وشط المزار (٧١).

وصفها عند بعض الأدباء

يصف لسان الدين بن الخطيب مدينة مكناس، حينما عرج عليها في أثناء مقامه أخيراً بالمغرب وحيث التقى بالأفاضل من علمائها الأجلاء، وذلك في كتاب «نفاضة الجراب، وعلالة الاغتراب، فيمن بقي من الأصحاب» قال: وأطلت مدينة مكناسة في مظهر النجد، رافلة في حلة الدوح، مبتسمة عن شنب المياه العذبة، سافرة عن أجمل المرأى قد أحكم وضعها الذي أخرج المرعا، قيد البصر وفذلكة الحسن، فنزلنا بها منزلاً لا تستطيع العين أن تخلفه حسناً ووضعاً، من بلد دارت به المداشر المغلة، والتفت بسوره الزياتين المفيدة، وراق بخارجه للسلطان المستخلص الذي يسمو إليه الطرف، ورحب

• هدير المياه في مكناس •

ساحه، والتفاف شجره، ونباهة بنيه وأشراف ربوة، ومثلث بإزائها الزاوية القدمى المعدة للوارد، ذات البركة النامية، والمآذن الساميه، والمرافق المتيسرة، يصاقبها الخان البديع المنصب، الحصين الغلق، الغاص بالسابلة والجوابة في الأرض يبتغون من فضل الله تقابلها غرباً الزاوية الحديثة المربية برونق الشبيبة ومزيه الجدة والانفساح وتفنن الاحتفال(٧٢) .

والزاويتان اللتان يشير إليهما ابن الخطيب أنشأهما أبو الحسن المريني أولاهما في عهد أبيه، والأخرى بعد تربعه على عرش المملكة ويتابع ابن الخطيب وصفه هذا، فيقول: وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم، كلفت بها المملوك الجلة الهمم، وأخذها التنجيد، فجاءت فائقة الحسن، ما شئت من أبواب نحاسية، وبرك فياضة تقذف فيها صافي الماء أعناق أسدية، وفيها خزائن الكتب، والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين، وتفضل هذه المدينة كثيراً من لداتها بصحة الهواء وتبحر أصناف الفواكه وتعمير الخزائن ومداومة البر لجوار ترابها سليماً من الفساد معافى من العفن، إذ تقام ساحات منازلها غالباً على أطباق الآلاف من الأقوات تتناقلها المواريث ويصاحبها التعمير، وتتجافى عنها الأرض، ومحاسن هذه البلدة المباركة جمة قال ابن عبدون من أهلها ولله دره:

إن تفتخر فاس بما في طيها   وبأنها في زيها حسناء
يكفيك من مكناسة أرجاؤها   والأطيان هواؤها والماء

كما يصفها ابن الخطيب أيضاً في كتابه «معيار الاختبار» في ذكر المعاهد والديار فيقول «مدينة أصيلة، وشعب المحاسن وفصيلة فضلها الله ورعاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها فجانبها مريع، وخيرها سريع، ووضعها له ـ في فقه الفضائل ـ تفريع. عدل فيها الزمان وانسدل الأمان، وفاقت ـ الفواكه

ـ فواكهها، ولا سيما الرمان، وحفظ ـ أقواتها ـ الاختزان ولطفت فيها الأواني والكيزان، واعتدل ـ للجسوم ـ الوزان.

ودنا ـ من الحضرة ـ جوارها، فكثر قصادها من الفضلاء وزاورها، وبها المدارس والفقهاء، ولقصبتها الأبهة والإباء، والمقاصير والأبهاء(٧٣).

وينظم فيها لسان الدين كذلك شعراً، فيقول: (٧٤)

بالحسن من مكناسة الزيتون   قد صح عذر الناظر المفتون
فضل الهواء وصحة الماء الذي   يجري بها وسلامة المخزون
سحت عليها كل عين ثرة   للمزن هامية الغمام هتون
فاحمر خد الورد بين أباطح   وافتر ثغر الزهر فوق غصون
ولقد كفاها شاهداً مهما ادعت   قصب السباق القرب من زرهون
جبل تضاحكت البروق بجوه   فبكت عذاب عيونه بعيون
وكأنما هو بربري وافد   في لوحه والتين والزيتون
حييت من بلد خصيب أرضه   مثوى أمان أو مناخ أمون
وضعت عليك من الإله عناية   تكسوك ثوبي أمنة وسكون

• • •

الهوامش:

(١) يبلغ تعداد مكناس حسب الأحصاء الرسمي لعام ١٩٧٨م ـ ٧٥٠,٦٠٠ ألف نسمة.

(٢) أما الدار البيضاء فيبلغ عدد سكانها ٢,٢٦٣,٥٠٠ مليون نسمة.

(٣) وأما الرباط فتعدادها ٨٢٩,٧٠٠ ألف نسمة.

(٤) يبلغ تعداد سكان مراكش في الإحصاء المذكور ١,١٩٢,٦٠٠ مليون نسمة.

(٥) أما فاس فيبلغ تعدادها ٧٢٤,٦٠٠ ألف نسمة. انظر في هذه الإحصائيات: مجلة الأمن الوطني المغربية (عدد ١٢١ لعام ١٤٠٠هـ).

(٦) نسبة إلى السلطان المولى إسماعيل، الذي جعل من مكناس عاصمة للمغرب (١٦٧٣ ـ ١٧٢٦م).

(٧) أضخم البوابات الأثرية تقريباً في المغرب، ترتكز على أعمدة مرمرية متوسطة الطول، شرع في إقامتها إبان عصر المولى إسماعيل، وتم بناؤها في عهد نجله مولاي عبدالله عام ١٧٣٢م، وتنسب البوابة إلى المنصور العلج، أحد الموالي المشهورين في العصر الإسماعيلي.

(٨) يذكر الأثريون في المغرب أن هذه الأعمدة القصيرة قد جلبت من الآثار الرومانية في مدينة وليلى الرومانية، وهي على بعد حوالي ٣٠ كيلومتراً شمالي غرب مكناس.

(٩) ابن غازي المكناسي في «الروض الهتون» ص ١ ـ ٢.

(١٠) يفصل هذا الوادي بين المدينة القديمة وبين المدينة الجديدة، ويعرف حالياً بعدة أسماء حسب الأماكن التي يجتازها في مسيرته، منها «وادي معروف» و«أبو فكران» و«دردورة». أما المنبع فمن غار يعرف بغار الريح بجبل بوزكو، أحد جبال قبائل بني مطير.

(١١) تجدر الإشارة إلى أن السهول المكناسية تضم الآن قرابة مليون شجرة زيتون و٢٥٠ ألف شجرة فاكهة، وبالمدينة أضخم معمل لتعبئة الزيتون والزيت بالمغرب.

(١٢) أحد الأبواب الواقعة غرب المدينة، ويعرف بهذا الاسم منذ ذلك التاريخ حتى اليوم انظر: هامش «الروض الهتون» ص: ٢٧.

(١٣) بنو غفجوم فخذ من قبيلة جراوة الزناتية، كانوا يقطنون جهة تادلة في القرن الخامس الهجري وإليهم ينتسب الشاعر المغربي أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي الغفجومي المصدر السابق، ص:٩.

(١٤) يعرف حتى اليوم بهذا الاسم، وهو يفصل بين هضبة حمرية عن سهل سايس.

(١٥) د. حسن أحمد محمود «قيام دولة المرابطين» ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧.

(١٦) ابن خلدون «العبر» جـ٦ ص ١٨٤.

(١٧) الاستبصار في عجائب الأمصار ـ ص: ١٨٧.

(١٨) راجع : ابن غازي المكناسي في «الروض الهتون» حيث يذكر في ص ٢٨» ... وجامع الخطبة القديمة يعرف لهذا العهد بجامع النجارين.

(١٩) انظر: «نظم الجمان» ط، تطوان، ص: ١١٧.

(٢٠) يذكر صاحب كتاب «تاريخ الأندلس» المؤرخ الألماني يوسف أشباخ» ترجمة عبدالله عنان بابلي في صدد التنظيم العسكري ليوسف بن تاشفين ... وأنشأ، ـ على مثل هذا النمط حرساً خاصاً من الأندلسيين يتألف من فتيان من النصارى المعاهدين الذي يحتم عليهم اعتناق الإسلام ... وكان علي بن يوسف أول أمير مرابطي اختار حرسه الخاص من بين النصارى» جـ٢ ص ٢٣٦ كما يورد صاحب «الحلل الموشية» ما يؤيد النص السابق خاصاً بعلي المرابطي، إذ يقول وهو أول من استعمل الروم بالمغرب (يعني الفتيان الأسبان) وأركبهم وقدمهم على جباية المغارم ص ٦١ ـ ٦٢.

(٢١) هناك رسالة صادرة عن العاهل علي المرابطي إلى القاضي أبي القاسم بن ورد والفقهاء المستشارين بغرناطة: أوردها الونشريشي في «المعيار» جـ٨ ص ٣٩ وردت بها هذه الفقرة وقد خاطبنا النصارى المعاهدون المنقولون من اشبيلية: الحاصلون بمكناسة الزيتون، حرسها الله مؤرخاً ذلك الجواب بعام ٥٢١هـ وهو تاريخ مطابقة تلك الأحداث المنوه عنها.

(٢٢) انظر «نزهة المشتاق» تحت عنوان «وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية» ص ٥٢.

(٢٣) ينسب المسجد إلى حي باحواز مكناس كانت تسكنه قبيلة تحمل هذا الاسم راجع الأستاذ/ محمد المنوني في مجلة «الثقافة المغربية» عدد ٧ (١٩٧٢م) ص ٤٨.

(٢٤) هكذا ورد ذكر اسمه في الوثائق المكناسية القديمة، ويصعب التهكن بسبب تلك التسمية.

(٢٥) المصدر السابق، ص: ٢٥.

(٢٦) روض القرطاس، ط فاس، ص ٩٧ ـ ٩٨.

(٢٧) روض القرطاس، ص: ٩٥ ـ ٩٦.

(٢٨) الروض الهتون: ص: ١٩.

(٢٩) المصدر السابق جـ١ ص: ٩٢.

(٣٠) نفس المصدر، جـ١ ص: ٢٢٥.

(٣١) جذوة الاقتباس، ط.ف، ص ٢٧ وفيا يتصل بمادة «القورجة» انظر: مجلة الأندلس جـ١٦ ص ٧٩.

(٣٢) إتحاف أعلام الناس، جـ١ ص: ٩٢.

(٣٢) الروض الهتون، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٣٤) إتحاف أعلام الناس، جـ١ ص: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٣٥) الروض الهتون، ص ١٤ ـ ١٥، ومازالت آثار هذه المقابر قائمة بمكناس حتى يومنا هذا عن يمين المار من باب البراذعيين لضريح مولاي عبدالله بن أحمد، وعن يسار الذاهب لباب تزيمي». نفس المصدر المذكور، ص: ١٦ (٣) المصدر السابق ص: ١٦ ـ ١٨.

(٣٦) نفس المصدر. ص: ٢٣.

(٣٧) المصدر السابق، ص: ٢٤.

(٣٨) نفس المصدر، ص: ٢٥.

(٣٩) مجلة الثقافة المغربية، عدد ٧ (١٩٧٢م) ص: ٣٠.

(٤٠) إتحاف أعلام الناس، جـ١ ص ١٧٢.

(٤١) لقد اندثرت بناية هذا الحمام الآن تماماً، وأقيمت على أنقاضه مبان حديثة انظر المصدر السابق جـ١، ص:١١٢.

(٤٢) الروض الهتون، ص ٢٥، وحيث ذكر اسمه «الأمير جونثالث» ابن أخت الفونش نزيل مكناسة يومئذ.

(٤٣) نفس المصدر، ص ٢٦.

(٤٤) نفس المصدر، ص ٣٤.

(٤٥) إتحاف أعلام الناس، جـ١، ص: ٩٩.

(٤٦) المصدر السابق، وتبلغ مساجد مكناس اليوم حوالي ٨٥ مسجداً، منها ١٥ مسجداً تقام بها الجمعة.

(٤٧) المعجب، ص: ٢٢٥.

(٤٨) المقتبس من كتاب الأنساب، في معرفة الأصحاب، ص ٤٧، ٥٤.

(٤٩) المراكش في المعجب، ص: ٣٢٢.

(٥٠) إحدى الدول التي حكمت المغرب أثر تغلبهم على الموحدين، وقد دام حكمهم من عام ٦٦٩هـ حتى ٨٦٩هـ، ثم نهض في أعقاب المرينين أحد فروعهم وهم (الوطاسيون)، فتملكوا زمام الأمور حتى عام ٩٥٤هـ.

(٥١) الروض الهتون ـ نقلاً عن «العبر» ـ ص: ٣٣.

(٥٢) تعرف حالياً باسم «المدرسة الفيلالية».

(٥٣) راجع: «سلوة الأنفاس» حيث ترجمة لهذا القاضي معززة بمصادرها جـ٣ ص: ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٥٤) كانت تقع براس عقبة الزيادين، وقد زالت آثارها، وبنى حالياً مكانها قصر عظيم.

(٥٥) لقد صارت الآن مربطاً للدواب على يسار الداخل لدرب سيدي غريب.

(٥٦) مازالت هذه المدرسة قائمة حتى اليوم، وتعرف اليوم بمدرسة العطارين.

(٥٧) الروض الهتون، ص: ٣٦ ـ ٣٧.

(٥٨) هو الوزير أبو زكريا يحيي بن زيان الوطاسي، وزير السلطان عبد الحق المريني (المقتول غدراً عام ٨٦٢هـ) انظر: جذوة الاقتباس، ص: ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(٥٩) انظر مجلة «البحث العلمي» الصادرة عن جامعة محمد الخامس بالرباط: عدد ١١، ١٢ مزدوج، ص ١٨١ ـ ١٨٢ (فاس الجديد مقر الحكم المريني) للأستاذ محمد المنوني.

(٦٠) تبلغ مساحة هذا الحوض ٤٠٠ متر طولاً، ١٠٠ متر عرضاً، ٤ أمتار عمقاً.

(٦١) مجلة العربي الصادرة في الكويت (العدد: ٧ ـ ١٩٧٢م).

(٦٢) انظر: إتحاف أعلام الناس ـ لابن زيدان، جـ٣ ص ٥٨١، وكذا: الروض الهتون لابن غازي، ص: ٤٤.

(٦٣) انظر: إتحاف أعلام الناس، جـ٤ ص: ٥١٧، والروض الهتون، ص: ٤٤.

(٦٤) إتحاف أعلام الناس جـ٣ ص:٢.

(٦٥) المصدر السابق، جـ١ ص ٣٢٢، ونفح الطيب، جـ٧ ص ٢٧٢ والروض الهتون، ص ٤٦ ـ ٤٩.
(٦٦) انظر: الروض الهتون ص ٥٠ ـ ٥٢، نفح الطيب ص: ٧٠، ٢٧٣، إتحاف أعلام الناس جـ٣ ص ٣٠٨.
(٦٧) انظر: الإحاطة، لابن الخطيب جـ١ ص ١٧٩، إتحاف أعلام الناس جـ١ ص ٢٩٨.
(٦٨) انظر: إتحاف أعلام الناس، جـ١ ص ٣٠٤.
(٦٩) المصدر السابق، جـ١ ص ٥٠٣.
(٧٠) المصدر السابق، جـ١ ص ٤٩٨.
(٧١) الروض الهتون، ص: ٦٨.
(٧٢) انظر: الروض الهتون، ص ٦٩.
(٧٣) انظر: معيار الاختيار، تحقيق د. محمد كمال شبانة، ص ١٦٥، ١٧٢.
(٧٤) انظر: الروض الهتون، ص ٧١.
(٧٥) انظر: الروض الهتون، ص ٥ ـ ٦.

مصادر البحث

١ ـ العبر لابن خلدون (بولاق ١٢٨٤هـ).
٢ ـ الروض الهتون، في أخبار مكناسة الزيتون.
لأبي عبدالله محمد بن غازي العثماني.
(المطبعة الملكية ـ الرباط ١٩٦٤م).
٣ ـ إتحاف أعلام الناس، بجمال أخبار حاضرة مكناس، لعبد الرحمن بن زيدان العلوي.
٤ ـ جغرافية المدن المغربية للدكتور/ إحسان عوض.
(مطبوعات المركز الجامعي للبحث العلمي ـ الرباط ١٩٦٤م).
٥ ـ معيار الاختبار، في ذكر المعاهد والديار لابن الخطيب السلماني.
تحقيق الدكتور/ محمد كمال شبانة.
(طبع وزارة الأوقاف المغربية ـ الرباط ١٩٧٦م).
٦ ـ المغرب عبر التاريخ للدكتور/ إبراهيم حركات.
(نشر دار الرشاد ـ الدار البيضاء بالمغرب ١٩٧٨م).
٧ ـ قيام دولة المرابطين ـ للدكتور/ حسن أحمد محمود.
(نشر مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٥٧م).
٨ ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس (ط.ف عام ١٣٠٥هـ) لابن أبي زرع.

٩ ـ الاستبصار في عجائب الأمصار.
١٠ـ الإسلام في المغرب والأندلس.
ليفي بروفنسال (الترجمة العربية/ سلسلة الألف كتاب رقم ٨٩ ـ بالقاهرة) ١٩٥٦م.
١١ـ نزهة المشتاق ـ للإدريسي (ليدن ١٨٦٦م).
١٢ـ جذوة الاقتباس ـ لابن القاضي.

الدوريـــات

١ ـ الثقافة المغربية (العدد ٧ ـ ١٩٧٢م).
الصادرة عن وزارة الثقافة ـ الرباط.
٢ ـ مجلة العربي (العدد ١١٥ يوليو ١٩٦٨م).
الصادر عن وزارة الثقافة والإعلام الكويتية.
٣ ـ الأمن الوطني (العدد: ١٢١ جمادى الأولى والثانية ١٤٠٠هـ).
الصادرة عن وزارة الداخلية ـ الرباط.
٤ ـ مجلة البحث العلمي ـ الصادرة عن المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط عدد (١١، ١٢ مزدوج).

• باب المنصور العلج بمكناس •